الحلقة (٥)

في هذه الحلقة سيكون تكميلاً لما بدأناه عن الحديث عن نشأة المكتبة في الإسلام.

وكنت قد قدمت في حلقة سابقة لهذا الموضوع بالحديث عن نشأة المكتبة بعامة واهتمام البشرية بتحصيل المعرفة لأنها تحقق أمرين:

تحقق قوة وسلطة للمجتمع، وتفيد في توجيه حياته ونشاطه وتسديده.

فإذن هذه الحاجة للمعرفة قائمة لدى الناس، والأمر الآخر أن الإنسان متدين بغريزته فيحتاج لمعرفة توجهه فيما يتعلق بمصيره ومستقبله الأخروي.

بالنسبة للحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي وكيف نشأت المكتبة فيه؟ كان نشأة المكتبة له دوافع، الدافع الأساس هو النص المنزّل **لماذا ؟؟** لأن الأمة الإسلامية أمة رسالة، تبلغ هذا النص المنزل للعالمين، وبلاغه يحتاج إلى بيان وإيضاح، ويحتاج إلى أمور أخرى ولذلك نشأت حول النص عدة علوم، العلوم الموثقة أو علوم التوثيق التي توثق النص وتبين صحته وبما يتعلق بعلوم القرآن وتعتني بالقرآن وبكتابته وجمعه إلى... إلخ مما يتعلق بتوثيق هذا النص العظيم.

والأمر الآخر في السنة أيضا، ونشأ حول النص النبوي، مجموعة من العلوم التي توثق هذا النص، وتبين الصحيح وما حاول البعض إدخاله من الأحاديث الموضوعة، فنقدت الأحاديث وبينت المزيف وأثبت الصحيح، فنشأت عدة علوم كمصطلح الحديث وعلم الرجال وعلم العلل ونحوها من العلوم المتعددة المعروفة بعلوم الحديث، هذه **علوم مُوثِّقة للنص**، وهناك **علوم شارحة** التي تشرح وتبين المراد بحسب الطاقة، كعلم الفقه والتفسير الذي يكشف عن معاني النصوص وفقه الحديث ونحو ذلك من العلوم التي تتحدث عن هذه الجوانب وتشرح من خلالها وتبين النص.

كذلك نشأت علوم منهجية، بمعنى العلوم التي لا بد لمن يجتهد في شرح النص وبيانه أن يكون عارف بها ومنضبطا بقواعدها، ولا يكون النص خاضعا للتشهي والهوى في شرحه وفي بيانه.

فهذه كلها علوم نشأت في إطار النص أو في خدمة النص، فكانت بدايات لنشأة المكتبة في الإسلام، هذه البدايات في المجال العلمي أو الديني توسعت ومازالت تتوسع إلى شيءٍ كبير، كذلك من العلوم التي نشأت في خدمة النص **علوم وسائل** كعلم اللغة وما يتصل بعلوم اللغة والأدب والبلاغة والبيان ونحوها، التي تعين على فهم النص والاقتراب من روحه، أيضا كان للمستجدات والنوازل أثرا كبيرا في تطور المكتبة في الإسلام وتكاثر ما كُتب من علوم ومعارف في هذا الشأن، فإذن هذا جانب من الجوانب الذي كان سببا في نشأة المكتبة في الإسلام.

جانب آخر هو الواقع بما فيه من تطورات وتغيرات، فمعلوم أن العرب كانوا في الجزيرة العربية ولها

عوائدها ولها وضعها من حيث التطور المادي وتطور الوسائل وغير ذلك، ثم لما توسع المسلمون وانتشروا في الأرض تلاقوا مع مجتمعات قطعت شوطا في الحضارة والتقدم والصناعة، كالمجتمع الفارسي والمجتمع الروماني والمجتمع المصري ونحو ذلك من المجتمعات الأخرى التي انفتح المسلمون عليها، فكان لذلك أيضا أثرا آخر في تطوير المعرفة، وفي استحداث علوم معاشية يُحتاج إليها في التطبيق، هذه العلوم بعضها لم يكن مما استحدثه المسلمون، وإنما كان لدى الآخرين واستفادة المسلمون من خلال التلاقي والتثاقف مع هذه المجتمعات الأخرى، فأسهمت هذه المعارف في تطوير المكتبة في الحضارة الإسلامية.

فإذن **الجانب الأول**:النص والرسالة رسالة الأمة **والجانب الثاني**: اتساع نطاق الأمة جغرافيا واتساع حاجتها زمنيا، **والجانب الثالث**: تلاقيها مع الأمم المتقدمة معاشياً وماديا والاستفادة من هذه التجارب وإدماجها في الحضارة الإسلامية.

كل هذه الأمور الثلاثة كانت روافد للمكتبة في الإسلام، هذه الروافد أسهمت في التوسع الكبير في مكتبات العالم الإسلامي، فما زالت تتسع حتى انتقلت نقلة أخرى، طبعا في البداية كانت المكتبات أقرب من أن تكون عند الأشخاص أو أن تكون في دور التعليم، لكن اهتمام الدول الإسلامية بمسألة المكتبات وإنشائها طوّر هذا الأمر فأصبح هناك مكتبات ضخمة ومعروفة في التاريخ، من أشهرها دار بيت الحكمة في بغداد أنشأها هارون الرشيد ثم طورها من بعده المأمون، وكانت فيها المصنفات من مختلف العلوم والفنون، كذلك من المكتبات دار الحكمة في القاهرة وكانت تضاهي بيت الحكمة في بغداد، بل كان بينهما تنافس شديد في أن تحصل كل مكتبة على الكتاب قبل الأخرى.
كذلك من المكتبات مكتبة قرطبة في الأندلس أيام الدولة الأموية في الأندلس التي كانت هي الأخرى تنافس وتحاول ولها رواد يشترون الكتاب من المشرق قبل أن يخرج هناك لكي يدخل مكتبة قرطبة، فكان هناك تنافس بين هذه المكتبات أدى إلى ظهورها، بجانب ذلك كان هناك مكتبات في المساجد، ومن المعلوم أن التعليم فيها كان حيا وقويا ومازال التعليم ينسب إلى هذه الجوامع وإن كان استقل عنها وأصبح في أماكن أخرى يدرس مثل الأزهر والزيتونة والقرويين وغيرها كان التعليم فيها، وكانت تحوي المكتبات، بالإضافة إلى مكتبات أخرى متعددة، سواء كانت لعلماء أو وجهاء من المكتبات الشهيرة ويشار إليها بالبنان في العالم الإسلامي، وكلما زاد ازدهاره آنذاك كلما اتسع نطاق المكتبات فيه مثل مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة ومكتبات الخلفاء وهناك مكتبات عامة ومكتبات مدارس.....إلخ

وبعض هذه المكتبات القديمة في العالم الإسلامي تم إحيائها كالمكتبة الظاهرية ونحوها، وهناك من المكتبات ما اندثر وانتهي بسبب ظروف عرضت له مثل مكتبة دار الحكمة بالقاهرة التي انتهت حين أصبح صلاح الدين حاكم في مصر فعمل على إنهاء هذه المكتبة.

ما الأهداف التي تترياها المكتبات؟ أو لماذا تنشأ المكتبات ؟؟

في التعريف أشرت إلى أنها تلبي حاجات المجتمع أو فئة من الفئات، إذن قد تكون الأهداف على مستوى عام للمجتمع، وقد تكون موجهة لخدمة فئة من الفئات، فمن المكتبات الموجهة لخدمة فئة من الفئات مكتبات الأطفال ومكتبات الشباب مثلاً والمكتبات الخاصة ونحو ذلك، بعض الجهات المعينة قد تحتاج لمكتبة لتلبي حاجاتها وقد يغلب عليها اهتمامها كالجانب القانوني أو العسكري أو الجانب السياسي أو الجانب الإداري ونحوه، فنجد أن المكتبة التي في هذه الإدارة تعنى بحاجة هذه الإدارة أو هذه الفئة من الناس، إذن المكتبة تتعدد أهدافها بتعدد أنواعها، لكن حسبنا أن نشير إلى بعض الأهداف العامة التي قد تصدق على بعض المكتبات بعامة وتصدق على بعضها دون بعض.

من أهداف المكتبات :

١.**تثقيف الأمة:** فلا شك أن هذا هدف من الأهداف الأساسية السامية لإنشاء المكتبة، فما من أمة من الأمم إلا وتهدف إلى الرقي بذاتها والوصول إلى مصاف الأمم، وتسعى جاهدة للحصول على ذلك، ومن أهم الطرق للرقي لمستوى الوعي أن يتم تثقيف الأمة وتعليمها وتطويرها، ولاشك أن المكتبات تسهم في ذلك إسهاما كبيرا، بقدر وجود المكتبات الثرية وبقدر الإقبال عليها والقراءة فيها واستثمارها يكون مستوى الوعي، ولذلك يقال عن شعب معين بأنه شعب قارئ وعن شعب آخر أنه ليس بقارئ، وقد تكون المكتبات متوفرة جدا لكن القراء لا يُوجَدون، ولا فائدة من المكتبة إذا لم يوجد القراء، وهو كمن اشترى سيارة من أفخر السيارات وأوقفها دون أن يستعملها حتى تفسد أو تهلك، فحينئذ تثقيف الأمة يأتي في أولوية الأهداف التي يسعى إليها واضعو المكتبات أو منشأها أن تكون عاملا في هذا الأمر.

٢.**الثاني حفظ التراث:** حفظ تراث الأمة، الأمة قد يكون لها امتداد قديم وجذور قديمة، وقد تكون تكونت حديثا، وحفظ التراث يكون فيما يتعلق بالأمة بعامة، وقد يكون فيما يتعلق بإنتاج أو توثيق تراث وطن من الأوطان، فبالنسبة للأمة الإسلامية تراثها واسع ومتنوع، وللأسف أيضا مشتت في العالم أجمع وليس في العالم الإسلامي وحده، ومنه ما هو موجود ومنه ما هو مفقود ومنه ما هو في حكم المفقود -ولعلنا نأتي على هذه النقاط بعد الحديث عن الأهداف- فلذلك من الأهداف التي تنشأ من أجلها المكتبات الحفاظ على تراث الأمة كمخطوطاتها الموزعة في العالم وجمع هذه المخطوطات والعناية بها وإحياء تراثها، ولا شك أن المكتبات تؤدي دورا مهما في هذا الجانب، يمكن أن تحفظ تراث الأمة سواء من خلال رصده أو جمعه أو من خلال إخراجه ونشره أو من خلال إذاعته وبيانه ونحو ذلك، فعدة قنوات يمكن أن تعمل من خلالها المكتبات على العناية بالتراث وحفظه، سواء كان تراث الأمة بعامة أو تراث جهة وطن من الأوطان.

٣. **تيسير البحث:** لا شك أنه ليس كل باحث قادر على أن يكون لديه ما يحتاجه في بحثه من وثائق

ومن علوم ومن أوعية معرفية ونحو ذلك، فهذه المكتبات تيسر على الباحثين وتقرب لهم البعيد وتيسر الصعب وتوفر الجو الهادئ والمناخ المناسب للبحث العلمي، فتيسيرها للبحث يكون من عدة أوجه:

الامر الأول من خلال المناخ الهادئ الذي يتيح للباحث النظر والتفكر والاستيعاب،

والأمر الثاني ما توفره من قنوات معرفية،

الأمر الثالث كونها على قدرة أو قدرتها عالية على التواصل مع مراكز البحوث،

الأمر الرابع أنها قد تعين الباحث في أمور مادية بأن تمول بحثه،

الأمر الخامس أنها قد تعينه في نشر بحثه وهكذا فتيسير البحث في المكتبة له عدة أوجه بحسب قدرة المكتبة وبحسب استراتيجيتها.

٤. **متابعة المستجدات في مجال المعرفة:** لأن المعرفة والعلوم لاشك ولاسيما ونحن في عصر الثورة المعلوماتية وانفجار المعلومات هذا العصر يحتاج إلى ملاحقة سريعة ومتابعة جادة لكل ما يطرح بحسب الإمكان، ولاشك أن الأفراد أصبحوا عاجزين عن أن يحيطوا بهذا التوسع أو أن يحيطوا بجزء منه فضلا أن يحيطوا به، فهنا دور المكتبات ولا سيما الكبرى والمدعومة أن تيسر وتتابع كل جديد حتى يكون أمام الباحثين لديها ما يستجد من المعرفة، وتكون المعلومات المستخدمة في البحوث جديدة وحديثة، هذا المجال وهو متابعة المستجدات أقدر عليه المؤسسات وليس الأفراد، وهنا تبرز المكتبة في المقدمة لتكون هي المهيأة أو المؤهلة لمتابعة المستجدات وتيسيرها للباحثين.

٥. **توثيق التراث الوطني في مجال المعرفة والثقافة:** فلذلك نجد لكل دولة في الغالب مركزاً وطنياً أو مكتبة وطنية توثق النتاج العلمي والفكري في هذا البلد أو ذاك، وعلى سبيل المثال في المملكة العربية السعودية مكتبة الملك فهد الوطنية هي المكتبة التي تعنى بتوثيق النتاج العلمي هنا في المملكة، لذلك يحمل الكتاب رقما معينا هو رقم التوثيق لهذه المادة المعرفية التي أذنت لها المكتبة ورخصت لها ووثقتها وأصبحت موثقة لديها، فهذا هو مركز التوثيق الوطني، وهو في الغالب مكتبة مهمتها الأولى والأساسية توثيق النتاج العلمي الوطني.

٦. **تغطية أوقات الفراغ:** لاسيما لدى الشباب نجد أن هناك مساحة من الفراغ في أوقاتهم، فتكون المكتبات مجالا لاستثمار هذا الفراغ فيما ينفعهم بذواتهم وما ينفع أمتهم، فبقدر ما يستفيدون من معارف وعلوم يكون هذا أثره لاشك ليس للأفراد بذواتهم وإنما أيضا لأممهم.

٧. **تحقيق التكامل بين العلوم:** فالمكتبة لا تختص بعلم من العلوم، وإنما تحوي جميع العلوم والمعارف والأوعية ليس فقط المعرفية، بل الأوعية الثقافية كما أشرت في حلقة سابقة، فإذا كانت بهذا الشكل فإن مناخها يوحي بهذه التكاملية ويعطي هذه التكاملية بين العلوم، بحيث يشعر من يأتي إلى المكتبة

أنه أمام معارف متنوعة يكمل بعضها بعضا، ويسد كل صنف منها ثغرا من ثغرات الحياة، بحيث أنها بمجموعها تؤدي إلى الاستجابة لما تتطلبه الحياة بمجموعها، فهي إذن توحي بهذا التكامل بين العلوم وتقربه إلى الأذهان واقعا محسوسا.

٨. **إكساب الإنسان العادات الحميدة**: كعادة حب القراءة والإطلاع والبحث والنظر والتدقيق، لاشك أن من ارتاد المكتبة وتكرر منه ذلك فإن المدة أو الزمان تكسبه عادات ومهارات قد لا يحسن لها لو لم يكن من المرتادين والمترددين على المكتبات، ومنها هذه التي أشرنا إليها كتنمية الميول للقراءة والبحث وغرس حب الإطلاع والقراءة.

٩. **تنمية القدرات**: فيما يتعلق بالمعرفة والبحث والتحليل وممارسة ذلك تطبيقياً.

١٠. **الكشف عن ميول الطلاب**: فيما يتعلق في رغباتهم في فن من الفنون أو علم من العلوم، فبما أن المكتبة بها كل هذه الأصناف المتعددة فهي تتيح خيارات تسمح بالاختيار بينها، وباكتشاف ما يوافق ميول الإنسان، وقد يكون لدى مرتاد المكتبة -وهو لم يكتشف من نفسه هذا الشيء- لديه مثلاً ميول في الجانب التاريخي، وآخر في الجانب الجغرافي، ونحو ذلك، حينما يرتاد المكتبة ويبدأ في الإطلاع شيئاً فشيئاً لاشك أنه سيجذبه ما يتوافق مع ميوله، فما يزال به هذا الشيء حتى يكون قد تعرف على ما يهمه أو ما يهدف إليه.

هذه هي مجموعة من الأهداف التي تنشأ من أجلها المكتبات في المجتمعات الإنسانية بعامة، وليست الأهداف بمجموعها لكل المكتبات بمجموعها، وإنما هي أهداف متنوعة قد يتحقق جزء من هذه الأهداف في مستوى معين من هذه المكتبات، وقد يتحقق جزء منها في مستوى آخر، وقد تتحقق جميعها في مكتبة بعينها لا سيما المكتبات الكبرى التي تجمع اهتمامات أطياف المجتمع، فمثلاً تضم قسما للأطفال، وقسما للشباب، وقسما للوثائق، وآخر للأشياء التراثية، وقسم للمخطوطات، وقسم للكتب، وقسم للأشياء السمعية والبصرية، ونحو ذلك، فيكون لديها قاعات متنوعة ومتعددة تلبي كل الاحتياجات، إذن فالأهداف تختلف وتتسع بحسب اختلاف المكتبات وبحسب اختلاف أنواعها.

التراث الإسلامي:

التراث الإسلامي منه موجود ومنه مفقود، وهذا الموجود منه المنشور ومنه ما لا زال مخطوطاً، وسبب فقد كثيرٍ من تراث الحضارة الإسلامية وكتبها يعود إلى النكبات التي تعرض إليها العالم الإسلامي من جهة، ومن جهة أخرى مشكلة التخلف والانحطاط، أما من ناحية ما تعرض إليه العالم الإسلامي من نكبات فقد تعرض لنكبتين كبيرتين جداً بالإضافة للمشكلات الأخرى:

النكبة الأولى: هي ما حدث للمسلمين على أيدي التتار المغول حينما غزو الحضارة الإسلامية والدولة العباسية وأسقطوها عام ٦٥٦هـولم يقفوا إلا في الشام، هذه الغزوة المدمرة دمرت الكثير من تراث المسلمين وحضاراتهم، فقد كان أولئك الغزاة يحرقون ما يقع تحت أيديهم، وقد رموا في نهر دجله

الكثير من التراث الإسلامي، لم يكونوا يرون لهذا التراث قيمة.

كذلك جاءت **نكبة أخرى:** على يد النصارى حينما دخلوا الأندلس وأسقطوا الدولة الإسلامية، فقد أحرقوا الكثير من تراث المسلمين هناك، وتتبعوا المسلمين تتبعاً شديداً، وحاولوا تنصيرهم والقضاء عليهم واستئصال الدين الإسلامي في ديار الأندلس.